المصدر: الشرق الاوسط
التاريخ : ١١ ابريل ٢٠٠٣

محمد العربي المساري

سقوط ليس مفاجئا

الآن مطلوب إعادة البناء على أساس جديد

ليس فجاة سقطت بغداد. وليس فجاة سقطت بالشكل الذي سقطت به ونحن نتابع ما يحدث بالتلفزيون. الظروف التي جعلت النظر الى ما حدث غير موحد لم تنشا فجاة. ولا فجاة وجدنا انفسنا لكل حساباته التي تكيف نظرته لما حدث. حدث هذا هكذا ولم يكن ممكنا أن يكون في شكل غيره. كانت نذر العاصفة تتجمع، ونحن نعرف انها آتية لا نقدر لها دفعا. الأكثر من ذلك أن الجميع يتوقع الآن باستسلام ان هذه العاصفة لها ما بعدها.

وهناك تفاصيل تتردد عما سيحدث في الاشهر الستة القادمة، وما سيحدث بعد عامين. ويتردد كلام دقيق عن الرؤوس التي اينعت. وعن سقوط النظام الإقليمي العربي بشكله القديم. وعن ضرورة قيام نظام إقليمي عربي آخر بديل على أسس جديدة.

وقبل إن هذا البديل قد يكون آمنن إذا لم يكن فضفاضا. وهذه فكرة لا تعدم حجة لصالحها. فإن أوربا التي تبنى لبنة لبنة، بدات بتجميع لستة أقطار كانت انظارها في 1958 مركزة على ملفي الفحم والفولاذ. وقامت بجانب تلك الفكرة دعوات لإقامة تجمعات أوربية اكثر شمولية. المجلس الأوربي الذي يضم الآن اربعين دولة استهدف لدى إنشائه في 1949 الوحدة السياسية. المجموعة الأوربية للتبادل الحر التي انشئت بعد عشر سنوات من ذلك كانت غايتها إزاحة الحواجز الجمركية في ما بين الدول الاوربية. المشروع الدفاعي الذي برز في منتصف الخمسينات خالقا زوبعة سياسية كبيرة والذي عرف باسم اللجنة الأوربية للدفاع كان غرضه عسكريا.

في وسط كل هذا كانت مجموعة محدودة من الدول الأوربية تحبل بمشروع وحدوي تخطو رويدا في طريق طويل كان يقتضي تخطيطا متانيا، وعملا مثابرا، من الفحم والفولاذ، انتقلت الى السياسة الفلاحية المشتركة. وحينما استوعبت نتائج مرحلة «السوق الأوربية المشتركة» انتقلت الى البناء السياسي. وهي الآن تسعى لتوحيد سياستها الخارجية والدفاعية. وتفكر في دستور موحد. وهذا التدريج في العمل أصبح مدرسة. فحتى حينما استقرت أوربا هذه على فكرة إزاحة الحواجز لتنقل البشر انشات فضاء شينغن الذي لا يشمل حاليا كل الدول الأعضاء في اللجنة الاوربية. وحينما عمدت الى توحيد العملة وإنشاء بنك مركزي اقتصر الأمر على عدد محدود من الدول قبلت التضحية بسيادتها المالية. وفي وسع الباقين حينما تشتد عضلاتهم ان يلتحقوا بشينغن وبالعملة الموحدة.

لكن خلف كل هذا كان هناك مشروع سياسي واضح المعالم. كان الاختيار الديموقراطي هو كنه ذلك المشروع.. لم مجموعة الست في حظيرتها تلك الدول التي لا تقبل بالديموقراطيا. بقيت كل من إسبانيا والبرتغال واليونان عقدين من الزمن تنتظر أن يفتح لها الباب. ولم تحصل علي بطاقة العضوية إلا حينما حصل مواطنوها على بطاقة الناخب. هناك دول اخرى تاخرت عن الركب لأسباب سياسية ذات طبيعة اخرى، مثل بريطانيا والدينمارك والنمسا. لكن باب اوربا كان موصدا دون الدول التي عششت فيها الديكتاتوريا. وهذه اهم معالم المشروع الأوربي.

وظل معيار العضوية في السوق الاوربية المشتركة هو قبول الشرط السياسي المتمثل في الديموقراطيا، وقبول شرط التلاؤم مع القواعد المعمول بها في المجموعة الأوربية كما وضعها المؤسسون، مما اخضع المرشحين الى إجراء تسويات تم التفاوض بشانها، والمرور بمراحل ضرورية لضمان التكيف مع القواعد المعمول بها في دول المجموعة.

لا باس إذن من الناحية النظرية ان تتالف اليوم مجموعة من الأقطار العربية متماثلة في ما بينها من حيث الانشغالات الامنية والأقتصادية والمتحملة لتبعات الالتقاء في تلك الانشغالات والعمل بانسجام اكبر في ما بينها، وتكون هي القاطرة. ولا باس في أن نبني عمارة من عدة طوابق. في الطابق الأعلى البناء السياسي، وفي الطوابق الدنيا المرشحون الذين يستعدون للالتحاق.

نحن في حاجة الى جامعة عربية جديدة بالفعل، تلبي الحاجات الساسية لنظام إقليمي عربي قابل للعيش في شروط القرن الحادي والعشرين. وهناك حاجة امنية، لمواجهة إسرائيل، والاخطار التي تتهدد المنطقة من جراء عودة الاستعمار. وهناك حاجة تنموية لن تكون إلا في ظل القواعد

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

التي تفرضها العولمة التي هي كابوس بالنسبة لمن لايقدر على التنافسية، وهي فرصة لمن يقبل التحديات ويقدر عليها. وهناك حاجة قبل هذا وذاك الى الحداثة، وطريقها الوحيد والآمن هو الديموقراطيا كما هي متعارف عليها عالميا. ولا محل للدفع بالخصوصية التي لا يلوح بها إلا للابتعاد عن نمط حكم قوامه حكومات نابعة من صناديق الاقتراع.

إن تلبية الحاجات الثلاث المذكورة تتطلب نظرة جديدة الى انفسنا وإلى العالم. والأحداث المهولة التي نعيشها حاليا والتي تشرف عليها المنطقة برمتها لا تحتمل الانتظار. وليس طبيعيا أن يقع الاجماع على أن النظام الإقليمي العربي قد فشل، ولا يكون هناك البحث عن مخرج. وطبيعي من جهة اخرى، أن يتطلب بناء النظام الإقليمي الجديد بعض الوقت. ولكن لتجنب مضيعة الوقت يجب أن تكون هناك نظرة فاحصة للتشخيص، ونظرة واعية للتحديات.

إن احد أبرز العوامل التي ظهرت في الأشهر الماضية أن الجماهير هتفت من المحيط الى الخليج بأنها غير قابلة للوضع الحالي المتمثل في العجز والتشرذم. وتوجد الحكومات العربية في ورطة كبيرة من جراء اتضاح فشل نمط التنمية المتبع، وانعدام شروط تكوين وفاق وطني في المجتمع يحفظ التعايش، ويعد بالتنمية.

إن شعوبا أصبحت ترى في الشاشة الصغيرة كيف تكون المحاكمة العادلة، وكيف هي شفافة صناديق الاقتراع، وكيف يقع التناوب على الحكم، وكيف يجري التداول في البرامج، وكيف يعاقب سارقو الامتيازات، وما هي مواصفات ومزايا دولة القانون، لن تقبل أن تبقى مجترة لأوضاع مريضة هي غير مسؤولة عنها بل غير مشاركة في صنعها.

وإذا كانت كل مراجعة للنظام الاقليمي العربي يجب أن يكون البعد الحداثي فيها واضحا، فهل هناك حكم عربي حسم نهائيا في هذه المسالة، لنتوقع وجود نواة صلبة مؤهلة للبناء السياسي المتصالح مع العصر؟ هل هناك مجموعة من الدول تتلاقى اهدافها لصنع هذا الثلاثي المتلازم: الأمن الجماعي، والتنمية السليمة، والحداثة، لتكون تلك النواة الصلبة؟

إن المرحلة التاريخية التي دخل فيها العالم تتميز بالقلق على الامن. قلق المتقدمين الاغنياء على امنهم من جراء استشراء الفقر عند المتخلفين. وستحتل الهجرة والإرهاب مكان الصدارة في العلاقات بين الشمال والجنوب. وسيسود خطاب بدأ تداوله في لابول منذ ما يقرب من عقد، مفاده انه على دول الجنوب ان تستعد لكي تقبل ان تتعامل معها دول الشمال تبعا لانخراطها في العصر وقوام ذلك قبول الديموقراطيا.

جاء في تقرير نشر في فرنسا منذ اسبوع أن الحرب على العراق بعثت ظاهرة جديدة هي الاهتمام الذي اولاه المراهقون لتلك الحرب. من قبل لم تكن الفضائيات تعمل بمثل الكثافة التي تعمل بها الآن. وجاء في تقرير ان تلاميذ المدارس تحركوا في الشارع بمناسبة هذه الحرب بشكل لم يكن له مثيل منذ عشر سنوات خلت. وقال استاذ بإحدى الثانويات إنه لم يكن في وسع الأساتذة أن يتجاهلوا الموضوع ولا أن يصرفوا اذهان الصغار باجوبة لا تتعمق في التفاصيل، ولا تتناول الأسباب الحقيقية للحرب، والمراهنات التي تحذو الاطراف المتقابلة.

في 1998 كان قصف اميركا للعراق قد أثار في المغرب حركة تلاميذ جد شاسعة كادت تكون هي التعبير الوحيد الذي خرج الى الشارع حينئذ. ويمكن القول إن أول تحرك شهده المغرب في المرحلة الراهنة كان في المدارس الثانوية. ثم جاءت التحركات المؤطرة في ما بعد لتنظيم ذلك التعبير التلقائي الذي يدل على أن سن الإدراك السياسي قد انخفض ووسع كثيرا قاعدة المخاطبين والشركاء.

معنى هذا أن الحكومات في عجزها عن إعطاء أجوبة مقنعة بشان تصرفها او عدم تصرفها حيال الأوضاع العامة، والآن حيال مسائل السلم والحرب، قد اصبحت مطالبة بان تهيئ خطابا موجها لإقناع مخاطبين جدد هم الناخبون في غد قريب. وهذا مطروح بحدة على مستوى قطري، كما على مستوى جماعي.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية